شرف الكتابة
وشرف الموت

« احسست لاول مرة في حياتي بفخر اني كاتب من كتاب القصة العربية القصيرة ، حين استشهد غسان كنفاني . فبحياته التي انتهت هكذا ، انتقل من حيث الكتاب ، الى حيث الابطال وكان اول كاتب قصة يفعل هذا ، بل ، بالادق اول كاتب في كل تاريخ ادبنا العربي يعيش قضيته الى حد الشهادة احسست بفخر اني انتمي لغسان وانه من نفس جيلي . وان تاريخ الكتابة العربية، الكتابة ، وليس صفة الكتابة ، سيبدأ من هنا .. المرة الثانية التي احسست فيها بالفخر اني كاتب، حين تفضل الاصدقاء وعهدوا الي بكتابة هذا التقديم لقصص غسان كنفاني القصيرة الكاملة ... انه شيء لا أحس له بفرحة ، انه شيء يجعلني احس بتشريف اعتقد اني غير جدير به . من أنا حتى اقدم كاتبا ، رفع من الادب العربي كل عاره وغسل بدمه تقاعس مئات السنين ؟ من أنا ، وماذا فعلت للقضية كي اقدم كاتبا فعل من أجلها ما أصبح في عداد الاساطير ؟

... وهناك النهاية ، تلك التي لم يكتبها غسان في قصصه القصيرة او الطويلة ، فنهايات مثل تلك لا تكتب . لقد ظل يكتب حتى بلغ الحد الاعلى للكتابة ، حتى لم يعد هناك ما يكتب . وهكذا كان لا بد للنهاية ان تكون عملا فوق الكتابة . وفوق آماد التصور وفوق الخيال . كان لا بد أن تكون (العمل ، الشعر) او الاستشهاد ارقى واعظم وانبل مراحل اي عمل فني او انساني على الاطلاق » .

بهذه الكلمات قدم يوسف ادريس للمجلد الثاني من الاثار الكاملة لغسان كنفاني . يضم هذا المجلد جميع مجموعات القصص القصيرة التي كتبها كنفاني . « موت سرير رقم ١٢ » ، « أرض البرتقال الحزين » ، « عالم ليس لنا » ، « عن الرجال والبنادق » . كما يضم مجموعة جديدة قديمة ، هي عبارة عن جمع لبعض القصص القصيرة التي نشرها كنفاني ، في فترات متفاوتة في الصحف والمجلات العربية ، ولم تضمها مجموعاته القصصية . في هذه المجموعة « وقصص اخرى » نعود الى الجو المتوتر الذي تخلقه كتابة كنفاني . فرائحة الدم الحار الذي يخرج من جنبات وشرايين سعيد الحمضوني في قصة « المدفع » ، تعيدنا الى فلسطين الحلم الذي لا يموت ، هذا الحلم لا ترويه الدماء وحدها ، بل يرويه عطش الشرايين الى الالتحام بفوهة المدفع . عطش الانسان الى الارض ، ليس عطشا رومانسيا . فالتحدي المأساوي ، يحيل الفلاح ، الى تاريخ كامل ، والقصة لا تصبح مجرد عملية جمع لمجموعة من الابطال المرتبطين بموضوع محدد. بل تتحول الى رؤيا تاريخية كاملة . يمتزج فيها التوتر بالحنين ، امام فوهة المدفع ، او امام شرايين الاشجار . وهو في قصة « البطل في الزنزانة » لا ينقل لنا هم رياض وحده ، بل ينقل هم العلاقة بين القصة والواقع . فالواقع اكثر غنى وتعقيدا من الخيال . وعذاب الخلق المتكامل بصيرورة العمل التاريخي لا يخرج الا من ذروة النضال .

وكما اكتشف يوسف ادريس في مقدمته « ان الموضوع الواحد ، يمكن ، في يد الكاتب الصادق الملهم (قيمة) يستخرج منها مائة سيمفونية ومائة كتاب بحيث ايضا ، كل سطر من هذا الكتاب ، كل حرف ، من الممكن ردها مباشرة الى هذا الموضوع الواحد » فان ضياء العزاوي اكتشف هو الاخر ، كيف يستطيع الموضوع الواحد ، ان يستحيل الى خطوط ، أشكال تتغلغل في الرؤيا الفنية ، وتشارك كنفاني رحلته الى جسد فلسطين .